الخطاب القرآني بين الدراسة البلاغية و اللسانيات النصية

The Quranic Discourse between the Rhetorical Study and Textual Linguistics

*** عائشة منور**

جامعة عبد الحميد بن باديس ،مستغانم،(الجزائر) menouer75.aicha@gmail.com

د. مليكة فريحي

جامعة عبد الحميد بن باديس ،مستغانم،(الجزائر) frihi malika@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/05/09 تاريخ القبول: 2020/12/14 تاريخ النشر: 2020/12/24

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن التكامل المعرفي بين الدراسات البلاغية القديمة ولسانيات النص في تعاملها مع الخطاب القرآني من خلال رؤية علماء الإعجاز القدامى، وذلك من أجل الوقوف على ذلك الاتحاد القائم بين علوم النص العربية القديمة و علم النص الحديث في تحليلها للنصوص، لاستخراج أسرارها وتفكيك رموزها، وقد خرجنا بنتائج مفادها، أنه يوجد تقارب والتقاء بين الدراسات البلاغية العربية القديمة ومفاهيم لسانيات النص، كما عدت البلاغة السابقة التاريخية لهذا العلم، وظهر ذلك جليا في الدراسات التي احتوت إعجاز القرآن، حيث زرع العلماء تلك البذور التأسيسية لما يعرف بعلم النص في مؤلفاتهم من بينهم الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن.

كلمات مفتاحية: البلاغة، لسانيات النص، الرؤية البلاغية، النظم، الاتساق المعجمي.

Abstract: The present research paper operates on revealing the cognitive relatedness and integration of study between the first rhetorical theories with the linguistic study of texts for the analysis of the Qur'anic text/discourse. The rationale of this research is based upon the works and views of the ancient scholars of al-i'jaz (the inimitability of the Qur'an) in order to justify the inevitable correlation between ancient and modern Arabic linguistics in its analyses of texts. The aim is also to demonstrate the unavoidable convergence between the ancient rhetoric and the modern treatment of the text relying, for this study, upon the i'jaz of Qur'anic discourse wherethrough the ancient scholars, , in their theoretical works, set the foundations for what is now known as the science of the text; or discourse analysis Among them Al-Baqlani in his book The Miracles of the Qur'an.

Keywords: Rhetoric, discourse analysis, rhetorical systems, lexical construction.

***المؤلف المرسل**: عائشة منور ، **الإيميل**: menouer75.aicha@gmail.com

1.مقدمة:

إن فكرة الإعجاز قديمة تعود منابعها الأولى إلى بداية نزول القرآن الكريم، فمن المعلوم أن العرب في تلك الحقبة الزمنية كانوا أهل فصاحة وبلاغة، ولما أنزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم انبهروا بما سمعوه من روعته وبيانه، وقد بين القرآن حيرتهم وذهولهم، وخاصة أولئك الذين بلغت فصاحتهم ذروتها، فما كان عليهم إلا الاعتراف بروعة بيانه لأن تأثير القرآن عليهم كان واضحا، وكان وقعه على أسماع بلغائهم وفصحائهم أشد وأقوى من غيرهم، لأنهم أدركوا جيدا فنون الكلام وأساليبه، وكانوا قادرين على التمييز بين النظم الإلهي والنظم البشري، والتاريخ الإسلامي شاهد على ذلك، من خلال ما جاء في الأثر من أخبارهم لما سمعوا الذكر فمنهم من أسلم وآمن ومنهم من عاند واستكبر، وصرفوا سمعهم عنه، بل أكثر من ذلك حيث عملوا على صرف الناس عنه.

تناول الباحثون الخطاب القرآني بالدّراسة من زوايا مختلفة، من بينهم علماء إعجاز القرآن الّذين أخذوا على عاتقهم مسؤوليّة الدّفاع عن القرآن والرّد على الطّاعنين فيه، فعملوا على إظهار حقيقة الإعجاز، وبالعودة إلى مؤلفاتهم نلاحظ المجهود الهائل المبذول في مجال دراسة اللغة والكشف عن أسرارها في محاولتهم بيان إعجازه، حيث قاموا بدراسات فاقت حدود الكلمة والآية إلى البحث عن اتساق وانسجام النص القرآني من وجهة بلاغية، وعلى الدرب ذاته سار المحدثون ومن هنا تبادرت لدينا إشكاليات البحث الآتية: كيف تناول هؤلاء العلماء الخطاب القرآني؟ وماهي الوسائل اللغوية التي استعملوها للوقوف على إعجازه البياني؟ ثم هل الدراسات البلاغية التي اعتمدوها كان يراد منها البلاغة المعيارية المستقلة بذاتها عن سائر العلوم اللغوية الأخرى؟ وما مدى التواشج بين القضايا البلاغية العربية القديمة ومفاهيم لسانيات النص الحديثة، بما أنهم درسوا النص القرآني كوحدة شاملة متكاملة؟

لمعالجة هذه التساؤلات نجد أنّ علماءنا قد درسوا البلاغة القرآنية، لأنها كانت وسيلة الكشف عن الأسرار اللغوية للخطاب إضافة إلى الجانب البلاغي، وكان النقد والتفسير والنحو من العلوم الأخرى التي اقترنت بالبلاغة العربية. كما أن لسانيات النص تعتبر ذلك العلم الحديث الذي يعمل على دراسة النصوص، وينظر إليها نظرة شمولية من أجل الوقوف على معايير النصية التي كانت تشكل إرهاصا للدراسات القرآنية، وقوفا وتأملا في لغة الكتاب المنزل، الأمر الذي جعلنا نلاحظ هذه الإرهاصات اللسانية التي كثيرا ما اشتغل عليها البلاغيون عبر التراث العربي، لأن نظرتهم إلى الدراسة البلاغية لم تكن معيارية فحسب، بل علما لا ينفصل عن سائر العلوم اللغوية الأخرى، ومن هذا المنطلق نلاحظ أيضا أن الدراسات البلاغية ارتبطت بلسانيات النص أيضا بطريقة غير مباشرة، تعرفا على الأسلوب القرآني المعجز، والوقوف على أسراره بلاغيا ولغويا استنباطا لأحكامه ، وبحثا عن جماليات تركيبه وعلاقات اتساقه وانسجامه.

على هذا الأساس سيعمد هذا البحث إلى الكشف عن ذلك التواصل المنهجي بين البلاغة القديمة ولسانيات النص، والبحث عن أوجه التجاور و التواشج بين العلمين، وهذا بالتطرق إلى مفهوم البلاغة ونشأتها ثم الرؤية البلاغية في الإعجاز عند العلماء القدامى، ويليه لسانيات النص ثم بين البلاغة ولسانيات النص، وبعدها معايير النصية في الإعجاز عند الباقلاني متّبعين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي:

2.البلاغة:النشأة والمفهوم:

ارتبط وجود البلاغة باللغة العربية، وألِفها العرب منذ القدم، فكانوا مفطورين عليها، واشتهروا بفصاحة اللسان وبلاغته في التعبير، فالعربي تأتيه المعاني مسترسلة وتنهال عليه الألفاظ والعبارات من غير تكلف، فقد امتزجت عقولهم وقلوبهم بألسنتهم دون عناء، ولما نزل القرآن الكريم انبهروا لما رأوا فيه من بديع النظم وحسن البيان وروعة الأسلوب، وعجزوا عن الإتيان بمثله لما وقع التحدي. وعندما اختلط العرب بغيرهم من الأمم على اختلاف لغاتهم وثقافتهم، أصبحوا بحاجة إلى فهم أساليبه فوضعت قواعد تيسر لهم ما تعسر عليهم لفهم أسلوبه وإدراك معانيه، وبذلك كان الاهتمام بالبلاغة.

لهذا اتجه الدارسون لنشأة البلاغة إلى القرآن والشعر، باعتبار القرآن الكريم كلام الله المنزه والشعر ديوان العرب، والقرآن أولى بالبحث لأنه "هو الدافع للبحث في الشعر واللغة على حد سواء، أو بمعنى أدق كان باعثا للبحث في لغة الشعر على وجه التحديد"[1]، ومما أدى إلى تبني الدرس اللغوي بالدراسة والتعمق فيه، هو ظهور تلك الإشكالات التي طرحها أهل

الفرق والمذاهب فحظيت الدراسات اللغوية بحظ وافر، وكان الاهتمام أكبر بإعجاز القرآن، وتأثرت هذه الدراسات بما جاء به هؤلاء العلماء، وما سطرته أقلامهم وما جادت به قرائحهم، وكان الهدف وراء دراسة الإعجاز هو الوقوف على أسراره بما في ذلك نظمه وحسن تأليفه وبداعة لفظه وروعة معناه.

3.الرؤية البلاغية في الإعجاز عند العلماء القدامى:

يقول "الجاحظ" (ت255هـ):" فللعرب أمثال، واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخرى، ولها حينئذ دلالات أخرى، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب، والسنة والشاهد، والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن، هلك وأهلك"[2]، لقد نزل القرآن بلغة العرب، لكن رغم كلام الجاحظ إلا أنّ القرآن عندما نزل تحداهم على الإتيان بمثله، فنزلت عدة آيات تدعوهم لذلك بداية بعشر سور نزولا بعد ذلك عند الآية الواحدة، لكنهم عجزوا عن ذلك لأن بلاغته وفصاحته ونظمه أكبر من أن يضاهيه قول آخر حتى ولو برعوا فيه. فالجاحظ يدعو إلى فهم لغة العرب حتى يتسنى لنا فهم القرآن الكريم وتأويله، فلا يستطيع أي امرئ أن يدرك شيئا منه، وهو ليس من أهل هذا الشأن فقد يُهلَك ويُهلِك .

سار على هذه النظرة علماء البلاغة، حيث يحدد "الرماني"(ت 382هـ) منهجه وهدفه في كتابه"النكت في إعجاز القرآن"، ومن خلال هذا المنهج تبين اهتمامه بالجانب البلاغي الذي بلغ القرآن به حد الإعجاز، وهذه النظرة البلاغية التي تناول بها النص القرآني يهدف من ورائها "إلى تحقيق معنيين: أحدهما متعلق بالأثر النفسي للبلاغة، وهو"إيصال المعنى إلى القلب" والثاني: متعلق بالأسلوب أو الصورة البيانية للبلاغة: من اللفظ والصياغة أو النظم، وهو" في حسن صورة من اللفظ" وهو بهذا التحديد لمفهوم البلاغة يضع عنوانا لهذه المجموعة من الخصائص الأسلوبية والجمالية في البيان، كما أنه بهذا التحديد يشير إلى أن الغرض المنشود من وراء كل فن من فنون القول هو تحقيق أثره البالغ في النفوس..". [3]ما هو جلي واضح أن الرماني انتهج مسلكا بلاغيا في حديثه عن إعجاز القرآن، فالبلاغة هي الأداة التي تساعد في إيصال المعنى إلى قلب المتلقي لتؤثر فيه، كما تقدم الحجج الهادفة لإقناعه ولا يكون ذلك إلا بتخير اللفظ المناسب، لأنه الأصل الذي به تصاغ المعاني.

كما أنّ الإمام "الخطابي"(ت388هـ) المعاصر للرماني يرى أنّ القرآن صار معجزا"لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني من توحيد وتحليل وتحريم...إلخ ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر"[4]،وفي الاتجاه نفسه، وفيما يتعلق بالبلاغة، بيّن "الباقلاني"(ت403هـ) في نظم القرآن"أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف"[5] ، وفي جملة وجوه إعجاز القرآن ذكر كسابقيه ثلاثة أوجه، ويكاد يكون كتابه كله حول الوجه الثالث على " أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه".[6] وإعجاز القرآن في نظمه وبيانه منصب عنده على القرآن كله كوحدة، وجملة لا تفصيلا، كنص كامل له ميزاته وصفاته التي تميزه عن أقوال العرب وفنون كلامهم، لهذا نراه يعارض فكرة الإعجاز البلاغي الذي يتعرض للتحليل الجزئي للعبارة، والبحث فيها عن ضروب البيان والبديع ومجاز القول، ثم لا يأخذ بالقول بفصاحة الألفاظ وحدها. [7]

أما "عبد القاهر الجرجاني" (ت471هـ)فقد أثبت أن بلاغة الكلام ومدار إعجاز القرآن هو النظم، وقد برهن أن "القرآن معجز بالنظم وأن بلاغة الكلام لا تعود إلى ألفاظه، وإنما إلى ما بينهما من صلة وارتباط"[8]، كما أوجد في كتابه دلائل

الإعجاز"طريقة جديدة للبحث النحوي متجاوزا أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبيّن أن للكلام نظما، ورعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة وأنه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهما معناه ولا دالا على ما يراد به"[9].

إنّ التراث العربي البلاغي الإسلامي يزخر بكمّ هائل من الأفكار والمواضيع والمصطلحات المتنوعة، فجعل ذلك العلماء يدعون إلى العودة إليه، ومحاولة قراءته من جديد مع العمل على تأويله وفق هذه القراءات الجديدة التي تستعمل تلك المناهج الحديثة، من أجل الكشف عن خباياه والوقوف على تلك المصطلحات ومعانيها، ونذكر منها المدونات التي عنيت بإعجاز القرآن، وهذا يدل على أن الدّراسات التّراثية وخاصة البلاغيّة منها، كان لها السّبق في تحليل النصوص على نمط لسانيات النص، فنجد بعض مظاهرها مبثوثة في ثنايا كتبهم، وعلى الرغم من أنهم لم ينظروا إليها نظرة علماء النص، إلا أنهم قد أدركوا معنى الوقوف على النصوص، واستنبطوا تلك الآليات التي تعمل على تماسكها، ووضعوا أيديهم على معيارين هامين هما: الحبك والسبك، فهم بذلك كانوا أهل بلاغة وأهل لسانيات النص ولو كانت في بذورها الأولى.

يقول الدكتور "محمود عكاشة":" والدراسات النصية الحديثة تدرس الجمل في ضوء ظروف إنتاجها وعلاقتها بالنص الذي تشكل جزءًا من دلالته، وتدخل هذه الدراسات في علم اللغة النصي، وهو اتجاه لغوي له جذوره في الدراسات البلاغية القديمة، فقد بحث العلماء تركيب الجملة في علم النحو، وبحثوا دلالتها في علاقتها بما جاورها في النص، وهذا من اختصاص علم البلاغة الذي يعالج الألفاظ والمعاني والروابط النصية"[10]. وواضح هنا أن علم البلاغة كان له السبق في التعامل مع النصوص من خلال دراسة تلك الروابط بين اللفظ والمعنى، والبحث في علاقة السابق باللاحق لاستنباط الدلالات أو العكس، وقد وظف علماء الإعجاز البحث البلاغي في دراستهم فاتفقوا في أمور واختلفوا في أخرى في معرفة أسرار الإعجاز، وفهم أساليبه الرفيعة، ولا يتم ذلك إلا باستعمال أساليب البلاغة وفنونها، وبذلك فالتاريخ الإسلامي يشهد لهم بتلك الجهود التي قدموها في هذا المجال.

4.لسانيات النص:

لسانيات النص هي فرع من فروع اللسانيات العامة التي وضعها "فرديناند دي سوسير"(F.De Saussure)، هذه اللسانيات قامت بدراسة الجملة ضمن مستويات مختلف: صوتية، وفونولوجية وصرفية وتركيبية ودلالية وتداولية، ويبدو أن لسانيات النص قد تجاوزت الجملة إلى دراسة النصوص كوحدة متراصة ومتكاملة يسودها الانسجام والاتساق، وفي دراستها لهذه النصوص تستخدم جملة من المقاييس لتتم عملية تحليلها كيفما كانت نوعية هذه النصوص،"فلسانيات النص هي التي تدرس انبناء النص وكيفية تركيبه وتوليده وتحويله من جملة نووية صغرى على خطاب نصي مسهب وممطط. بمعنى معرفة كيف تتوسع البؤرة المحورية دلاليا وتركيبيا وسياقيا لتتحول إلى فقرات ومقاطع ومتواليات حتى تصبح نصا متسقا ومنسجما"[11]. ذلك أنّ نحو الجمل لم يعد قادرا وحده على استنطاق وحدات أكبر من الجملة، فجاء هذا العلم كبديل يبين ما يمكن أن يقدمه من "جديد في تحليل النص واستكشاف بنياته الداخلية والوقوف على بلاغة تماسكه وجماليات انسجام عناصره"[12].

لقد اقترح "روبرت دي بوجراند"(Robert De Beaugrande) المعايير التالية لجعل النصية أساسا مشروعا لإيجاد النصوص واستعمالها وهي: السبك، الالتحام، القصد، القبول، رعاية الموقف التناص، الإعلامية. وهو يعترف بأنها ليست جديدة، ولكن علاجها حتى هذه اللحظة جاء مفرقا ومدمجا، ومن هذه"المعايير السبعة معياران تبدو لهما صلة وثيقة بالنص:

(السبك والالتحام) واثنان نفسيان بصورة واضحة(رعاية الموقف والتناص)، أما المعيار الأخير(الإعلامية) فهو بحسب التقدير ولكن يظهر من النظرة الفاحصة أنه لا يمكن لواحد من هذه المعايير أن يُفهم دون التفكير في العوامل الأربعة جميعا: اللغة، والعقل، والمجتمع، والإجراء"[13]. يبدو بأن "دي بوجراند" قد صنف هذه المعايير حسب ما يقتضيه دور كل معيار للكشف عن النص، فسبك النص وحبكه يكشفان عن الترابط المعجمي والدلالي للنصوص، فالأول يتعلق بالبنية السطحية للنص، أما الثاني فيتمثل في الطريقة التي ترتبط بها أفكاره، وجعل رعاية الموقف والتناص معيارين نفسيين، لأن انسجام النص يقتضي معرفة الجوانب المحيطة به، كما يعد التناص عنصرا مهما في العملية التواصلية لما له من تأثير في متلقي الخطاب، الذي يعتبر بدوره عضوا فعالا في عملية إنتاج النص، والإعلامية تتمثل فيما سيقف عنده المتلقي أثناء تلقيه للخطاب .

تعتبر النصية من المفاهيم التي لاقت رواجا كبيرا من قبل علماء النص، فاحتل العمل عليها مكانا بارزا في النص اللغوي لأن"النص بكليته لابد أن ينطوي على مجموعة مميزة من الخصائص تؤدي إلى التماسك والانسجام من خلال تأملات التلقي في النص المنجز" [14]، وعلى الرغم من أن لسانيات النص قد استقت معارفها من علوم أخرى، إلا أنها استطاعت أن تقف في تحليلها على بعض العناصر التي لم تؤخذ بعين الاعتبار سابقا ، وهذا سعيد البحيري يقول:" نحو النص يراعي في وصفه وتحليلاته عناصر أخرى لم توضع في الاعتبار من قبل، ويلجأ في تفسيراته إلى قواعد دلالية ومنطقية إلى جوار القواعد التركيبية، ويحاول أن يقدم سياقات كلية دقيقة للأبنية النصية وقواعد ترابطها وبعبارة موجزة قد حددت مهام بعينها لا يمكن أن ينجزها بدقة إذا التزم حد الجملة"[15].

عملت لسانيات النص على دراسة النص، وركزت اهتمامها عليه، فقامت بوصف وتحليل وسائل تماسك وانسجام عناصر ومكونات بنيته اللغوية على المستوى الشكلي والدلالي، وحتى الصوتي والبلاغي والتداولي، وذلك حسب خصوصية وطبيعة النص المدروس، ومن جانب آخر ألحت على أن يتسلح القارئ بالكفاية اللغوية من أجل التأويل الجيد للنص من خلال الممارسة القرائية المثلى،كي يتمكن من استكشاف هذا النص الذي بين يديه، والوقوف على مقاصده إضافة إلى ربطه بسياقه، فلقد حظيت اللغة باهتمام كبير من هذا العلم، فوظيفتها عامل مهم في الدراسات اللسانية النصية،كما كان للمتلقي شأن عظيم في العملية التواصلية من خلال قراءته له وحسن تأويله.

5.بين البلاغة ولسانيات النص:

لم يختلف الباحثون حول صعوبة البحث النصي، لأنه علم متشعب المنابع التي استقى منها مفاهيمه ومناهجه وتصوراته، واستطاع من هذا التركيب العجيب أن يخرج لنفسه أسسا وقواعد تجعله يتميز عن غيره "إذ إنّ السمة الجوهرية الفارقة له عن البحوث الأخرى تكمن فيما أطلق عليه التداخل المعرفي... واتسم هو نفسه بقدرة فائقة على استيعاب كل ذلك الخليط المتباين، بل وتشكيل بنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التداخل من جهة، وإبراز جانب التفارق بينه وبين العلوم الأخرى من جهة ثانية"[16]، فالبحث يتحقق على ثلاثة مستويات أساسية، وهي المستوى النحوي والدلالي والتداولي، فلا يمكن الفصل بين هذه المستويات .

تعتبر البلاغة من العلوم التي عنيت بالغوص في مضمون النص وأبنية المعنى، محاولة بذلك إيصال غاية إلى المتلقي قصد التأثير فيه، ويرى سعيد حسن البحيري أن هناك صلة وثيقة بين البلاغة ولسانيات النص فيقول:"ولا يخفى أن لمناقشتنا لحدود البلاغة وعلاقاتها بعلم لغة النص دلالة واضحة على الصلة الوثيقة بينهما إلى الحد الذي جعل بعض الباحثين يعدها السابق

التاريخي لعلم النص"[17]، نفهم من هذا القول بأن البلاغة هي العلم الأساس الذي أسس لنشأة علم النص، ذلك أنها أشارت إلى دراسات هذا العلم في تحليلها للنصوص، لكن كلا من العلمين يختلفان من حيث المنهج والأدوات والتحليل والأهداف، وغير ذلك من الاختلافات"فكل مفردات هذا العلم في صميم علم تحليل النص، ابتداء من مقدمة الفصاحة والبلاغة، وانتهاء بأصغر فن بديعي كل هذا وسائل وأدوات تعين على استكشاف جوهر النص...واعلم أن كل نظر في المباني لا غاية له إلا النفاذ إلى المعاني"[18].

يقول "فانديك "(Van Dijk) وهو أحد أعلام لسانيات النص : "إن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار توجهها العام، المتمثل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة لكننا نؤثر مصطلح علم النص؛ لأن كلمة بلاغة ترتبط حاليا بأشكال أسلوبية خاصة، كما كانت ترتبط بوظائف الاتصال العام ووسائل الإقناع"[19]، وهذا اعتراف من رائد من رواد علم النص على أسبقية البلاغة لهذا العلم الجديد، إضافة إلى ذلك التقارب المنهجي بين العلمين في النظرة إلى النصوص على وجه عام، حيث أنها أرهصت له، وقام علماؤها بطرح قضايا نصية في ثنايا كتبهم، وخاصة عند العلماء الذين خاضوا في الحديث عن إعجاز القرآن والوقوف على أسراره والبحث عن المخبوء من خلال تحليل نصوصه.

البلاغة لها السبق في كيفية التعامل مع المتلقي، فهي "تتوجه إلى المستمع أو القارئ لتؤثر فيه وتلك العلاقة ذات خصوصية في البحث اللغوي النصي"[20]،وقد عدت لسانيات النص وريثا شرعيا لها، وهذه الوراثة تجعلنا ندرك جيدا ذلك التكامل المعرفي بينهما على الرغم من أن البلاغة قد فقدت أهميتها في فترات سابقة إلا أنها استعادت مكانتها وأصبحت"تعد الآن السابق التاريخي لعلم النص"[21].فهي نظام يتحقق في النص، تؤثر على القارئ بإقناعه كما تؤثر على المتلقي في عملية الاتصال الأدبي" إن هدفها الرئيسي ينحصر في توفير القواعد وإعداد النماذج التي يستطيع المتكلم بمساعدتها إقناع سامعيه بحديثه وبمقدرته على تحقيق إثارة الشيء الذي يدافع عنه...وقد اتسع علم لغة النص في الأساس بضمه تلك القواعد والنماذج والاستراتيجيات المتاحة وتجاوزها إلى إمكانات أخرى، توفرت له من خلال الامتداد المعرفي واتساع الأفق والتداخل التصوري، ومكنته نظرته الشمولية من تخطي الامتداد الأفقي إلى أبعاد دلالية وإشارية وإحالية وإيحائية تستعصي على النظر المحدود"[22]، فالبلاغة ليست منطلقا لعلم النص وحده، بل لعدة علوم، وذلك راجع لدعوة قراءتها من جديد ليستقي منها كل توجه ما يناسبه.

إن المتفحص لكتب الإعجاز يجد بأن روادها قد أحاطوا في ثنايا كتبهم ببعض معالم الدراسة النصية، دون أن يشيروا إلى هذا العلم، ويلمح الدارس تلك المعايير التي استخدمها الأولون في دراسة النصوص وتحليلها، وعلى سبيل المثال لا الحصر، سنقف على جملة معايير النصية التي تنبه لها الباقلاني وأدرجها في كتابه"إعجاز القرآن"، والتي لها علاقة بالدراسات النصية الحديثة، والباقلاني له السبق في تعامله مع النص كوحدة كبرى متجاوزا في ذلك الجملة، فلقد أدرك مفهوم النص وعرف كيفية معالجته من دون أن يكون هناك تنظير للدراسة التي قام بها لأنها نقدية بلاغية بحتة.

6.معايير النصية في الإعجاز عند الباقلاني:

سنحاول الكشف في "إعجاز القرآن" عند الباقلاني عن ما يتناسب والمنهج اللساني النصي وذلك باستخراج المفاهيم والأدوات من أجل بناء مقاربة نصية بين القديم والحديث والكشف عن مدى التقارب والالتقاء بين الكثير من

النظريات اللغوية العربية القديمة، وبين ما أسست له الدراسات اللسانية النصية الحديثة من مفاهيم، وذلك لأن"مناهج التحليل اللساني تعد قاعدة كبرى من قواعد المعرفة، وأساسا مكينا من أسس استكشاف أعماق النص ودلالاته البادية والخفية" [23].ذلك لأن علماء علوم القرآن والمفسرين والبلاغيين للقرآن الكريم، كان لهم النصيب الأوفر في مقاربة النص القرآني بتوظيف الكثير من الآليات والأدوات والعلوم التي تحيط به في جوانب متعددة، من أجل الكشف عن مزاياه الجمالية و قيمه الدلالية إضافة إلى علاقاته الكلية، لذلك وجب أن يكون هذا النهج أقرب لما ذهبت إليه لسانيات النص وتحليل الخطاب، والنظر إلى النص كوحدة كلية، ومن هنا تتحدد أهم معايير النصية عند الباقلاني في النقاط الآتية:

1.6 النظم والتأليف:

أورد الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" كثيرا من الأمثلة من الآي القرآني، إضافة إلى تناوله السور كاملة وكذلك القصائد الشعرية وكذا الخطب والرسائل، وراح يحللها ويعللها، يأخذ آيات من سورة الشورى ليبين حسن النظم في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}(سورة الشورى/ الآية52ـ 53)"فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأُولَيَان مؤتلفتان. وقوله:{ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}، كلمة منفصلة مباينة للأولى، قد صيّرهما شريف النظم أشدّ ائتلافا من الكلام المؤَالَف، وألطف انتظاما من الحديث الملائم، وبهذا يبين فضل الكلام، وتظهر فصاحته وبلاغته الأمر أظهر والحمد لله والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف" [24] وبهذا يشير الباقلاني من خلال هذا القول إلى ذلك الترابط والتأليف القائم بين آيات القرآن الكريم، ومن الملاحظ أن الإمام كان يورد مصطلح النظم مقترنا بمصطلح التأليف الذي كان يعنى عند القدامى ترتيب المعاني أي العلاقات الدلالية بين العناصر اللغوية.

2.6 ثنائية اللفظ والمعنى:

لقد تحدث الباقلاني عن التلاؤم في عناصر النظم والتأليف في العلاقات المتفاعلة في النظم القرآني، فهو يتصور هذا النظم ضمن ثنائية اللفظ والمعنى، فالمعاني التي تضمنها القرآن" في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع"[25] لأن النظم القرآني"قائم على الصياغة والنظم، وعلى العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى، وهي نظرة متطورة مهدّت لظهور منهج علمي في المقابلة بين اللفظ والمعنى" [26].

يبدو اهتمام الباقلاني بالألفاظ على قدر اهتمامه بالمعاني واضحا، فقد دعا إلى التوافق بين اللفظ والمعنى لأن كليهما عنصر من عناصر الأسلوب، حيث تجمعهما وحدة عضوية داخل النظم فبانسجامهما تنطلق بلاغة نظم القرآن وفصاحته، ونتيجة هذا التلاؤم وهذا الانسجام نجدهما يؤديان المراد وهو التفاعل مع النص القرآني. وأي محاولة للفصل بينهما هي بمثابة "فصل للجسم عن الروح، والروح عن الجسم، وذلك لأن جمال الألفاظ في تعلقها بالمعاني، وحسن المعاني في وجودها في تركيب"[27]، كما أنّ "العلاقات القائمة بين اللفظ والمعنى وما تؤديه هذه العلاقات إلى الانسجام وحسن النسج والتماسك هي مؤدى فهمه لنظم القرآن" [28]، فالمادة الخام للائتلاف بين الألفاظ والمعاني هي النظم .

3.6 ـ الحذف:

من بين الوجوه التي ذكرها هي الحذف الذي عرفه قائلا:"الحذف: الإسقاط للتخفيف، كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[سورة يوسف/الآية82]، وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾[سورة محمد،الآية21]، وحذف الجواب كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا

سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [سورة الرعد/ الآية31]، كأنه قيل: لكان هذا القرآن. والحذف أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب" [29].فالأمر إذا كان مشهورا ظاهرا بعيدا عن أي احتمال يستحسن فيه كتم الجواب فالمحذوف تقديره"لكان هذا القرآن"، والحذف إيجازا لما في ظاهر الكلام من الدلالة، وهذه النظرة البلاغية للحذف جعلته يحقق ذلك التماسك النصي الذي يعمل على إيصال المعنى رغم الإسقاط الحاصل، فلا يترك المحذوف أثرا مخلا بالمعنى حيث تكون الدلالة أبلغ، مما يجعل الأمر مؤثرا في النفس البشرية التي تتلقى الخطاب وتتفاعل معه مدركة في ذلك روح المعنى لأن المعنى في السياق لا يستقيم إلا مع تقدير الحذف.

4.6 الاتساق المعجمي وخاصية التكرار:

يعد آخر مظهر من مظاهر اتساق النص إلا أنه مختلف عنها جميعا [30]، يربط بين العلاقات المعجمية القائمة بين مفردات النص ووحدات من جمله، وخاصة التكرار الذي يعتبر أحد الظواهر اللغوية التي اهتم بها العلماء قديما وحديثا وخاصة النحويين والبلاغيين، وقد عرفه العرب على أنه"دلالة اللفظ على المعنى"[31] ويعرفه محمد خطابي على أنه" شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما"[32] وذلك دليل على أهمية المعنى المكرر، وقد استعملها الشعراء قديما وحديثا لما لها من دور كبير في تماسك النصوص. فعلى الرغم من أن نظرة الباقلاني للتكرار بلاغية بحتة إلا أن وجوده في النص يحقق الاتساق، وترابط وحدات النص، سواء في بداية النص أو نهايته أو ما حواه المتن لأن اللافت للنظر أن الباقلاني قد أشار في تحليله إلى علاقة البدايات والنهايات التي حققت الانسجام.إضافة إلى أن النفس تستريح لوجوده، ويستجيب له المستمع لما يحققه من عمق وخاصة في القرآن الكريم لأنه يمنح هذا النص خصوصية ويساهم في اتساقه .

وفي خضم ما سلف ذكره، يبدو لنا جليا أنّ النظم والتأليف، ثنائية اللفظ والمعنى، الحذف والاتساق المعجمي هي أهم معايير النصية في "إعجاز القرآن" عند الباقلاني.

7.خاتمة:

أفضت هذه الدراسة التي تصبو إلى إظهار ذلك التواشج بين الدراسة البلاغية ولسانيات النص من خلال الخطاب القرآني إلى النتائج التالية:

*كان للعلماء القدامى ممارسات نصية مبثوثة في مؤلفاتهم، فهم لم ينظّروا لها كما هو الحال في الدراسات النصية المعاصرة، ولكنهم أفرزوا بعض الآراء ذات الصلة الوطيدة بعلم النص الحديث.

* يبدو أنّ الدراسات البلاغية المعتمدة في دراسة الخطاب القرآني بعيدة عن تلك البلاغة المعيارية المستقلة بذاتها عن سائر العلوم الأخرى، والممارسة التي قام بها الباقلاني في "إعجاز القرآن" قد ترقى إلى مستوى الممارسة النصية من خلال اعتماده دراسة النصوص كوحدة كبرى.

* إن ثراء التراث العربي البلاغي الإسلامي جعل العلماء يعودون إليه في قراءة جديدة حسب ما تقتضيه الدراسات الحديثة بحيث أصبحت البلاغة القديمة قادرة على الوصول إلى مستوى الممارسة النصية.

* تعتبر نظرية النظم التي كان لها السبق في الدراسات البلاغية للإعجاز الأساس الذي بنيت عليه الدراسات النصية، حيث هناك تشابه وتقاطع بينهما يجعلنا نقول أن الدراسات النصية هي امتداد لنظرية النظم التي أرسى قواعدها عبد القاهر الجرجاني.

* هناك التقاء معرفي بين اللسانيات الحديثة وتراثنا اللغوي العربي، فلابد من تأصيل الدرس اللغوي العربي التراثي النصي وإعطائه حقه من خلال الإشارة إلى المجهودات المبذولة من طرف العلماء القدامى، وخاصة الذين ارتبطت دراستهم بالقرآن الكريم، فقد أشاروا لأسس النصية كالسبك والحبك والقصدية.. في مؤلفاتهم ولو بطريقة ضمنية.

ومما نوصي به الباحثين في هذا المجال مواصلة الدراسة لرصد كل التواشج القائم بين الدراسات البلاغية واللسانيات النصية، خاصة في دراسة إعجاز القرآن.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم أنيس،دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1976م.
2. أبو عثمان الجاحظ ، الحيوان، ج1،تحقيق عبد السلام هارون، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1969.
3. أحمد عفيفي، نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001م
4. أحمد مصلوح، الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، ط1، 1973م، بيروت.
5. الباقلاني، أبي بكر محمد بن الطيب،إعجاز القرآن، تح السيد أحمد صقر،2009م، دار المعارف، مصر .
6. حامد أبو حامد، الخطاب والقارئ، مركز الحضارة العربية، ط2 ،القاهرة، 2002م .
7. حمد خطابي ، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، 1991م .
8. حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، منشورات الجامعة التونسية، 1981م .
9. سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان القاهرة، ط1 ، 1997م .
10. صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، الكتاب الأول، دار الكتاب الحديث 2003م .
11. ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، نهضة مصر(دط) (دت)، ج3 .
12. عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، 1434هـ ـ 2013م المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية
13. عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1986م .
14. محمد زغلول سلام ،أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له الأستاذ محمد خلف الله أحمد، ط1، مكتبة الشباب، 1372هـ ـ 1952م ، الإسكندرية .
15. محمد محمد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1427هـ ـ 2006م
16. محمود عكاشة، تحليل النص، دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، ط1، مكتبة الرشد ناشرون، 1435هـ ـ 2014م.
17. وليد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دمشق، دار الفكر، ط1، 1983م .

8.قائمة الإحالات

1- حمدي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، منشورات الجامعة التونسية، 1981م، ص35.

2- أبو عثمان الجاحظ ، الحيوان، ج1،تحقيق عبد السلام هارون،ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1969، ص 154.

3 - صلاح الدين محمد عبد التواب: النقد الأدبي، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، الكتاب الأول، دار الكتاب الحديث 2003م، ص61

4- الخطابي، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، مصدر سابق، ص14.

5- إعجاز القرآن، الباقلاني، أبي بكر محمد بن الطيب، تح السيد أحمد صقر،2009 م، دار المعارف، مصر ص454.

6- المصدر نفسه، ص49 ـ 50 ـ 51.

7- محمد زغلول سلام ،أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له الأستاذ محمد خلف الله أحمد،ط1 ، مكتبة الشباب، 1372هـ ـ 1952م ، الإسكندرية،ص270.
8- أحمد مصلوح، الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، ط1 ،1973م، بيروت، ص35.
9- إبراهيم أنيس،دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1976م،ص304.
10 - محمود عكاشة، تحليل النص، دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، ط1 ، مكتبة الرشد ناشرون، 1435هـ ـ 2014م، ص5.
11 - المرجع نفسه، ص3.
12- عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، 1434هـ ـ 2013م المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية، ص10.
13 - المرجع نفسه، ص106.
14- أحمد عفيفي، نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001م ،ص98.
15- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان القاهرة، ط1 ، 1997م، ص134 ـ 135.
16- المرجع نفسه، مقدمة الكتاب أ.
17- المرجع نفسه، ص5.
18- محمد محمد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط3 ،1427هـ ـ 2006م، ص14.
19- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، مرجع سابق، ص6 .
20 - نفسه، ص7.
21- حامد أبو حامد، الخطاب والقارئ، مركز الحضارة العربية، ط2 ،القاهرة، 2002م، ص141.
22 - حسن سعيد البحيري، علم لغة النص، مرجع سابق، ص9 .
23- عبد الرحمن بودرع، في لسانيات النص وتحليل الخطاب، السابق، ص15.
24 - الباقلاني، إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص 285.
25 - نفسه، ص63.
26- وليد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دمشق، دار الفكر، ط1، 1983م ص34.
27 - عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1986م ، ص21.
28 - وليد مراد، نظرية النظم،مرجع سابق، ص35.
29 - الباقلاني، إعجاز القرآن،مصدر سابق، ص 397.
30 - محمد خطابي ، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، 1991م، ص24.
31 - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، نهضة مصر(دط)، (دت)، ج3 ، ص03.
32- محمد خطابي، لسانيات النص،السابق، ص24.